



أقصصة من لوزة الكون

في عيد الميلاد

للأستاذ دريني خشبه

—>>><<<—

يدها تحت وسادتها فوجدت كتاباً مثل كتاب أختها ، ولكن جلده خضراء ، ورأت فيه صوراً رائمة ملونة أجمل من الصور التي في كتاب أختها ... ففرحت فرحاً شديداً ... ولما استيقظت بث ، وجدت هي الأخرى كتابها ذا الجلدة الحمراء ، وكذلك وجدت إيمي كتابها ، ولكن إيمي وجدت جوربها ممتلئاً بالحلوى والمُلبس والفسق ، فصاحت بملء فيها صيحة الفرح ، وراحت تنافس أخواتها وتفخر عليهم ... وقد أحس أخواتها بانتصارها حقاً ، واتهمن الملاك الكريم بأنه لم يعدل في القسمة ، وإلا فإنه كان ينبغي أن يملأ جورباتهن كما ملأ جورب إيمي ... وطال حوارهن ، واشتد سخيهن ، وكان حواراً وصخباً مملوئاً بالضحك ، مغممين بالاستبشار بعيد الميلاد السعيد ... وكانت بهجة تلقين بها العيد قبل مطلع الشمس كالبهجة التي يتلقى بها الطفل قبل أن يولد

وذهبت جو إلى غرفة أمها - وكان أبوها على سفر - لتوقظها فلم تجدها ، وظنت لساعتها أنها ذهبت إلى الكنيسة لتشكر للملاك الكريم ما آتخف بها بناتها من الكتب الجميلة ذوات الصور الملونة ، وما .. آتخف به إيمي من الحلوى .. فنادت جذلانة إلى الغرفة ، وما كادت تتحسس جوربها المعلق في (شباك) السرير حتى وجدته مقللاً فاستبشرت وطفرت قلبها ، وأفرغت ما في الجورب فوجدت قدراً هائلاً من الفسق المماج بالسكر والكستناء المثلوجة ... شيء عجيب حقاً ، لقد تحسست الجورب منذ ساعة فلم يك فيه شيء من هذا ... لئذ ذلك الملاك الكريم البار ... وعجب البنات عجباً شديداً ، فذهبت كل تتحسس جوربها فوجدته مفعماً ... فطرن من الفرح ، واشتد الصخب من جديد وعلا الضحك ... وأشرق الشمس ... ووقفت جو وسط

قبل أن يتنفس صباح عيد الميلاد استيقظت الفتاة (جو) والفجر لم يكذب ينبلج في الأفق الشرقي ، ولا الخيط الأبيض قد انسرق من زجاج النافذة لينير ظلام الحجرة الدائسة ... ولكن جو استيقظت مشوقة إلى هدايا العيد ، ومدت يدها الصغيرة المرحبة إلى جوربها المعلق في (شباك) السرير ليلاؤه الملاك بأحب اللعب ... ولشد ما شعرت بالخيبة حين وجدت الجورب فارغاً مما أملت أن يمتلك به ، فكتمت أنفاسها ، وأخفت حركاتها في أغوار قلبها ، ودست يدها تحت الوسادة التي تحدرت فوقها دموعها ... بيد أن أصابعها اصطدمت بشيء يشبه الكتاب تحت الوسادة ، فأمسكت به ، فإذا هو كتاب حقاً ذو جلد سميك مقوى ، لم تدر من وضعه هنا ... وقفزت من فراشها ، وأشعلت الصباح ، ونظرت في الكتاب ، فراعته جلده الجميلة الزرقاء ، وصوره الخلاب الملونة ، وطبعه الأنيق المتقن ... وقرأت فيه قليلاً فمرفت أنه قصة حاج يطوف بأقصى الأرض ليلوا أعاجيب الدنيا ... فتبسمت جذلاً ، وبادرت إلى أخواتها توقظهن :

— « ماجي ! إنهمض يا أخناه ... لقد أهدى إلى الملاك كتاباً فيه صور جميلة ... بت ! قومي ! استيقظي ! أنظري إلى الكتاب الذي أهداه الملاك إلى إيمي أهلي فتفرجي ... ! »

واستيقظت ماجي فسألت أختها وهي تفرك عينيها أين وجدت الكتاب ؟ فلما أخبرتها أنها وجدته تحت الوسادة ، دست ماجي

الجيلة التي رسمها في كتابي « ... فتضاحكت أخواتها ، ولكن الأم الزينة لم تضحك ، فتساءلت جو : « لم لا تضحكين يا أماء ؟ فيم تفكرين ؟ في أبي ..؟ سيأتي جالاً ... هو لا شك يفضل أن يقضى عيد الميلاد يفتنا ! » قبلتها أمها قبلة تفيض حناناً وحباً ، ثم قالت : « اسمين يا صغيراتي ... لقد ذهبت فأحضرت لكن اللعب من بابا نويل ، وحينما كنت هائدة سمعت أتيناً في منزل جارتنا الفقيرة ، فطرقت بابها ففتحت الباب ابنتها الكبرى ، فلما سألتها ما هذا الأئين ذكرت لي أن أمها كانت تلد ، وأنها وضعت غلاماً لا تدرى فيم تلقه لتقيه البرد ، وقالت لي إنهم لا يملكون حطباً يستدفئون به ولا طعاماً يأكلونه في هذا العيد السميد ، فدخلت فسلمت على الأم ، ورأيت وليدها ، ورأيت الصغار محتشدين في الفراش الفقير وهم ينتفضون من البرد ، ويلتصق بعضهم ببعض ليستدفئوا ... وراعى أن يطلب أحوم الوحيد الأصغر طعاماً فتنتظر إلى أمه ، وتمتلي عيناها بالدمع ولا تقول شيئاً ... منظر مؤلم حقاً يا جو ... أليس كذلك يا بت ؟ »

وتنظر جو إلى أخواتها ، وتبتل عيناها بالدمع ، وتقول : « مؤلم جداً يا أماء ! » وتقول إيمي : « وأين بابا نويل ؟ لم لم يرسل إليهم حلوى وفطيراً كما أرسل الينا ؟ » فتقول الأم : « يظهر أنه نسي يا إيمي ... جو ... أليس يجبنا الله ويدخلنا جنانه إذا نحن حملنا حلوانا وفطيرانا ، وذهبتنا لفطر مع هؤلاء المساكين ! »

فتسكت جو لحظة ، وتنظر إلى أخواتها ، ثم تقول : « والله إنها فكرة جميلة يا أماء ... هيا ... سأحمل جوربي كله بما فيه من كستناء وفسق » وقالت بت : « وأنا أيضاً ... ولكن الحلوى لا تشبع الجوعانين ... هاتي الفطير يا حنة » وتقول ماجي : « لا ... سأحمل أنا الفطير ... لتحمل حنا الحطب ... » أما إيمي ، فقد نظرت إلى أمها مرة ، وإلى الكتاب أخرى ، ثم قالت : « وأنا ... سأخذ هذا الكتاب لأفرحهم بصورة ... أنا لا أستغني بحال عن حلواي ! » فضحكت الأم ، وضحكت حنة ، ولكن جو قالت لأختها جادة : « ستدخل نحن الجنة وتركك يابها ما اعي ؟ » فقالت الفتاة وقد صدقت قول أختها : « بل أدخل قبلكن ... سأخذ لعبتي أيضاً ... »

أخواتها تهتف كأنها امبراطور : « أخواتي ! اسمي يا بت ، أصني يا ماجي ... اتبهي يا إيمي ... لنبق على الحلوى حتى تعود أمنا نتشركنا فيها ... ولنشرع من الآن في قراءة الصفحة الأولى من الكتاب الجديد ، حتى إذا عادت لوالدة سرت بدكائنا سروراً لا مزيد عليه ... وبذلك نرضي الملاك الكريم الذي أحفنا بالكتب والحلوى ، ولم يعدنا سغاراً فلم يتحفنا بما كان أحجى أن يتحفنا به من اللعب ... هو ملاك كريم على كل حال فلنشكره قبل أن نبدأ ... »

ورفع الصغار أيديهم إلى السقف ... وركمن على ركبهن ورحن يشكرن الملاك الكريم ، ثم اعتدلن ، وأخذن في قراءة الصفحات الأوليات ... وكان منظرهن كنظر الملائكة الأطهار الأبرار الأخيار . وإن تكن إيمي الصغرى لم تكن تفكر في هذا الملاك الذي ضايقها بهذا الكتاب ، ولم يتحفها بلعبة تفخر بها على أربابها إذا كان الصباح ، وبرز الأطفال في الشارع يتناقسون ويفخرون ... ولم تكذب تفهم من أجل هذا سطرأ واحداً من الصفحة الأولى من كتابها ، بل سمعت وجهها في الصورة الملونة ، وراحت تفكر وتدمن التفكير ، في شح هذا الملاك الكريم باللعبة التي لا يحيص منها في عيد الميلاد !

ولم يكذب الصغار بنهين من قراءتهن حتى دخلت أمهن وفي إثرها حنة الخادمة المجوز ، مثقلتين بكثير من اللعب وشيء غير قليل من الرقائق والشطير والفطير وحلوى الكاكو للإفطار ولقينيها بالبشر ، ولقيتهن بقبلة سعيدة طبعها علي جبين كل منهن إلا إيمي الصغيرة فقد طبعت لها قبلة طويلة على خدها .. وسرعان ما غفرت إيمي للملاك الكريم ما كان منه من شح بلعبة عيد الميلاد حين أخذت حسانها الخشي الكبير فعمت صهوته ، وأنشأت ترحم وتصخب ، وتقول : « كتاب ! أنا لم أقرأ حرفاً واحداً من الصفحة الأولى يا جو ... » ولكن جو نظرت إليها في ظرف ، ثم قالت لأمها : « ولكننا قرأنا الصفحة الأولى كلها يا أماء ، وستقرأ كل يوم صفحة أو صفحتين حتى نفرغ من كتبنا ... حقاً إن بابا نويل للملاك كريم » فردت بت تقول : « ويظهر أنه يبجد الرسم ويحذق التلوين . يا أماء ! أنظري صورة

وعادت العائلة المقدسة أدرأجها إلى المنزل
وجلسن حول المائدة كعادتهن كل يوم ، فقدم لهن الفطور
المادى من لبن وجبن وخبز ، فأقبلن عليه ، وأحبتين الشاي ،
وأحسن إحساساً عميقاً بسعادة فذة في نوعها ... سعادة لا تقدر
الحلوى ولا يستطيع الكسثناء ولا الفستق أن يصنع شيئاً منها ..
سعادة الخبز والبر ... وسعادة التقوى ... وسعادة الله !

وجلست الأم مع ذلك تشكر بناتها ، وتذكر لهن ما كان
يصنع القديسون والشهداء في هذا اليوم من ضروب الأيثار
وفنون التضحية ... وكان البنات يصفين في لهفة واشتياق ويكاد
الدمع ينهل من عيونهن

ونهبضت كل إلى لعبتها لتفرح بها

ونظرت إيمى إليهن ... وكانت قد حملت حصانها فأهدته
لجماعة الساكنين ... ولم يههما قط أن تكون عاطلاً وأخواتها
حاليات .. فتأثرت الأم ، وانطلقت معها إلى بائع اللعب ، واشترت
لها حصاناً أكبر من الذى تصدقت به على الفقراء ، فعادت إيمى
وقلبها يفيض بالبشر ، وراحت تفاخر أخواتها ، وأخواتها مع
ذلك قائمات راضيات

وبينا هن ضاحكات مستبشرات ، إذا بطارق الباب ، فتمضى
حنة لثرى ، وتمود لتذكر أن الجار الثنى ، صاحب القصر النيف
القريب ، يريد لقاء سيديتها ...

وتلقاه السيدة في غرفة زائريها المتواضعة ... ويشدها منه
أن ترى معه سلة كبيرة بها أشياء فهمت أنها هدية ...

— مرحباً يا سيد ! عيد سعيد إن شاء الله !

— عيد سعيد يا سيدتى

ترى ما الذى جاء بهذا الرجل الفنى في هذا الصباح ؟ لقد
عرف عنه أنه رجل عزوف عن الناس ، عزوف لأنه غني ...
هو يرى نفسه من طبقة غير طبقة هؤلاء الساكنين الذين إذا
تصدقوا بحلوى عيد الميلاد لم يجدوا حلوى غيرها ! فإذا جاء به ،
وهو هو الذى كان يمر بصاحب هذا المنزل فلا يقرئه السلام من
عظمة وكبرياء ... ! لقد كان فيه انقباض دأماً ... وكان يشيح
بوجهه عن إخوته من بنى آدم ... فإذا جاء به اليوم ؟ ثم ما هذه

وحملت كل منهن حلواها ... وتذكرت جو اللعب ، وما
عساها تبعت في الساكنين من مروح في هذا اليوم المبارك ،
فأسرعت إلى الدولاب فأخرجت كل اللعب القديمة ، وكان فيها
(طرايطير) من العام الماضى ، فأحضرتها ، وألبست كلا من
أخواتها طرطوراً ، ثم انطلق الجميع بأحلامهن إلى بيت جارتهن ..
ولم يكن الشارع قد ازدحم بكثير من المارة ، فكان يتضاجكن
مرة ، ويفتنفن من البرد الشديد أخرى ...

وطرقن الباب فانفتح ... وتقاطرن داخل البيت ، وأخذن
ينشدن نشيد عيد الميلاد ، وعلان البيت سعادة وبهجة . وقصدن
إلى السرير فأيقظن الصغار ... وأسرع هؤلاء وعيونهم تفيض
دمعاً ودهشاً .. وجعلوا يحلقون في الملائكة الأطهار اللائى جنن
يسمعنهم بالحلوى والغذاء والسعادة ... أما حنة فقد أوقدت
الحطب ... وأما الأم البارة فقد أخذت الوليد من أمه البائسة
ولفته في مزق أحضرتها لهذا الغرض ، ثم جلست تواسى الوالدة
المسكينة بكلمات طيبات

— وأقبل الساكنين والمسكينات على الفطير يلتمونه التهاماً ،
كأنهم قد لبثوا أياماً دون أن يذوقوا طعاماً ... وكان البنات
يشهدن ويمجبن ، لأنهن لم يرين ناساً يأكلون بهذه السرعة ،
ولا طعاماً يزدرد بهذا الشره ... ولكن جو كانت تنظر وتتألم
ثم تصطنع العبث وتجهد أن تضاحك الصغار ما استطاعت ...
ثم إنها أخذت الطرايطير من أخواتها ، فجعلها على رؤوس
البائسين ... وهنا أخذ هؤلاء يضحكون ويقهقهون ... ونسوا
ما كان بهم من فاقة وعوز وجوع ، حين دبت السماء حارة في
أبدانهم من الشبح ، فلما أخذت جو تفرق اللعب القديمة بينهم
— تارت بينهم وبينهن عاصفة من المرح ، وسرت فيهم موجة
جارفة من السرور ... وقالت فتاة منهن صغيرة : « شكراً لك
يا بابا نويل ، لقد حسبنا أنك نسينا ، ولكنك أرسلت إلينا اللعب
والطعام والحلوى ... والنار ... النار اللذيذة التى تؤججها أمانا
حنة ... فشكراً لله وشكراً لك ... وشكراً لأخواتنا هؤلاء .. »
وكانت الأم تصنى إلى ما تقول ابنتها ، وعيناها تفيضان بالدمع ..
فتواسيها بالأهيم الأخرى ، وتمسح عبراتها بأطيب الكلام الصالح ..

- السلة التي غطاها بورق كثيف؟ هذا تطور عظيم في حياة هذا
الجار الجاني النليظ التكبر، فما باله يا ترى؟
- لقد شهدت ياسيدتي ما صنعت صباح اليوم، فتأثرت من
عاطفتك الكريمة وإيثارك العجيب!
- عفواً يا سيدي... أشكرك
— ولست أدري إذا كنت مخطئاً...
— مخطئاً في أي شيء..؟
- لقد رأيت أن أقدم لصنارك شيئاً من الحلوى تموض
عليهم ما تصدقوا به... فلقد علمت منذ أيام أن زوجك الفاضل
قد فصل من عمله خطأ ارتكبه... وأنتم لا بد في ضيق مالي...
فإذا تقضت فأخذت هذا القدر القليل من المال أكون شاكرًا
وهنا... إحلولك الدنيا بأسرها في عيني الأم، وضاع
ما شعرت به منذ الصباح من النبطة والبشر، وانقلب الهناء الذي
غمر قلبها في عيد الميلادهما وعمًا وابتئاسًا!
- ما ذا تقول ياسيدي؟
- أقول إنني شهدت ما صنعت للمائلة البائسة، وتأثرت
جد التآثر من صنيعك الجميل، مع ما أنت فيه من الضيق
— وأنت ما شأنك وما أنا فيه؟
وارتبك الرجل وتعلم لسانه، وأنشأ يقول:
- لا... لا... شيء... فقط... أدت أن أساعدك!
- على كل حال أنا أشكرك، ولكني أسألك: هل بهذا
الأسلوب تفهمون الخير أيها الأغنياء؟
- لا أفهم ما تقولين!
- لا تفهم ما أقول، فكيف إذن فهمت أننا محتاجون،
ولم تفهم أن جارتنا البائسة كانت في أشد العوز والحاجة إلى
مساعدة أمثالك!
- هذا حق... هذا لا ريب فيه
— وما دام هذا حقًا، فلم لا تفعل؟!
— لقد أخطأت
— إذن لقد أحضرت لنا حلوى في هذه السلة؟
— أجل... لقد فعلت؟
- وماذا دفعتك إلى هذا؟
— حبة الخبز، وتأثري بما شهدت
— وكيف لم تتأثر بما علمت من بؤس جارتنا؟
— لا أدري والله!
- إذن تذهب إليها بهذه السلة فهي في أشد الحاجة إليها،
ولا تنس أيضًا أن تنفجها بلال الذي أعدته لنا...
— سأفعل! اسمحي لي بالانصراف إذن!
— لا... انتظر قليلاً! آتجيب يسوع أيها العزيز؟
— وكيف لا أحبه!
- إذن فأخرج من مالك عن شيء يكفل الستر لجارتنا..
فإنك غني جداً... أتعرف أن زوجها قد مات؟
— لا والله... لم أكن أعرف!
— إذن لقد عرفت مبلغ فاتحها!
— ...؟ ...
- إذن فإنك خارج عن بعض مالك لها ولا بناتها... هل
علمت أنها وضعت غلامًا سادسًا اليوم؟
— لا والله... لم أدر إلا منك!
— إذن فقد لمست بيدك مبلغ حاجتها إلى بر أمثالك!
— ...؟ ...
- انطلق إذن! سأزورها اليوم وسأرى ما ذا تصنع!
- ***
- وانطلق الثني ذوالجاه والثراء الضخم... ولكن...
إلى داره
- وبعد ساعة أو نحوها طرق البيت صاحب الدار، ووجهه
طافح بالبشر، ضاحكًا متهللاً... وزف البشري إلى زوجته،
وأخبرها أنه برّيء وعاد إلى عمله، ومنح مكافأة مالية... وقد
أحضر حلوى كثيرة لأطفاله، ولعبًا شتى لعبيد الميلاد... فلما
قصت عليه قصة الصباح، وما كان من أمر جارهم الثني، تتم
وعيناه تفرورقان بالدمع: «إذن.. تعيش المرأة وأولادها معنا..»
- درسيني محبته